متى النور يا ظلمات

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

أطبق الظلام على جميع آفاق الأرض . . . واختفى النور الصناعى الذى كانت الإنسانية تتسلق عليه إلى سُبُحات الجمال الموقوت والفن الفانى والطمأنينة الكاذبة . . . وارتدت الأحلام السعيدة إلى واقع الشجن والألم والانتكاس ، فعاقت أشباح الكهوف والمغارات ... وصارت قلوب بنى آدم أوكاراً لمخلوقات شنيعة شوهاء هن بنات الظلام والغدر والخيانة والجريمة والخديعة ...

ولم يَعُدْ للانسانية غير ينابيع نور الطبيعة تستصبح به ... لم يَعدْ لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم ... ولم يعد لقلوبها غير نور النور قبل الأزمنة والدهور ... ولم يعد لأفكارها غير مبادئ الحق الواضح فى الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البراقة التى رددتها منابر المعاهد والمجامع ومجالس الترف العقلى ، فقد اختفت مع اختفاء الأنوار الصناعية التى أوقدتها الأيدى المظلمة النجسة التى لم تتطهر بنور الله ، وقد طارت بكتبها وسجلاتها قذائف الحديد والنار ...

ترى : هل تكون أمواج هذا الظلام طوفاناً يغسل الأرض من ذلك النور الصناعى المدلس المدخول الذى لم يجر من منابع الحب ويد الله ، وإنما من يد الشيطان الذى طمس وجه الحياة ، وجعلها فى نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و « الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود » ؟ ثم أغراهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكضون تراكض الذئاب بالأظفار والأنياب فى عصر العجز والقصور ، وبالفياصل والمناصل فى بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرارات فى عصر بلوغ الأشد واكتمال السلطان ! ؟

أم أن القلب البشرى لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويفىء إليه ويأنس بكنفه ، ويرى فى ظله عبقريات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنيات الجنس وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء عقائدَ مقدسة يُفَلْسَفُ لها وتصطنع فى حبها ترانيم وأناشيد ، وتقدم لمذابحها قرابين من اللحوم البشرية ، ولمجامرها بخور وعطور من الأموال والمقتنيات حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فقلبى تغمره موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للانسان ، وظنى أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر أبلج وضاح ينمر آفاق الأرض غمراً طويلاً كما غمرتها هذه الظلمات طويلاً ... لأن قواد المستكبرين الهائلين للتحاربين لا يفكرون يرددون على أسماع الأمم التى فى أيديهم أزمتها ومقاليدها ؛ أنهم يحاربون فى سبيل خلق عالم إنسانى عادل سعيد هانئ بعد الحرب ؛ فإذا حدثت القوادَ نفوسهم أن يخيسوا بعهودهم وينقضوها ، فإن المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها

ثم لا تأخذون مما يقول روحاً سامية، ولا تستفيدون منه سمواً خلقياً

ويومئذ تجرؤون على كلمة الحق فتنقدون الأنظمة الفاسدة، والتقاليد البالية والأوضاع الضارة . ويومئذ تنتقلون من فساد إلى صلاح ، ومن ضعف إلى قوة ، فى جميع شؤونكم وفى جميع مرافق الحياة فيكم

ويومئذ تسيرون مع ركب الإنسانية للعمل لخير الإنسانية ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

محمد عزة
عضو جماعة كبار العلماء

ومنكوبيها سوف ينكلون بهم تنكيلاً ، سواء أكانوا منصورين أم مخذولين ، لأن الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب لا تغتفرها الشعوب إلا إذا رأت أنها أسلمت الناس إلى عالم أسعد وأكمل من العالم الحالي ، ولأن الحياة الاجتماعية لا تحتمل حرباً كهذه الحرب التي تدمر الإنسان مع ما أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء ... ولأن حرباً بعد هذه الحرب لا بد أن تكون أدهى منها وأمر ، بحيث تسحق براعم الحياة المدنية وأصولها سحقاً لا يبقي ولا يذر ، بما وصل إليه هذا الإنسان العجيب وما سيصل إليه في فترة السلم التي تعقب هذه الحرب ...

ويخطئ من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدي بين بني البشر ، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم تحب الحرب للحرب ، وتمجدها لا لشيء إلا اندفاعاً وراء تلك الغرائز والحركات التاريخية الموروثة ... إن من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة ، لا تزال تعيش في حدود النظرات الأولى للانسان ...

إن هذه الملحمة الكبرى تحول عميق أصيل عظيم في توجيه الحياة ... الحياة الخاصة للأمة الواحدة ، والحياة العامة للأمم جميعاً ... فلنتيقظ لهذا ، ولنؤمن به ، ولنعمل له ...

وإن القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقل الإنسان وقلبه وجسمه بعدهذه الحرب الحُطَمة النَّهُوس التي تهدم مثل العالم القديم الضيقة بمثلها وأفكارها الحرة ، كما تهدم مبانيه ومخلفاته بالديناميت ...

وها هي ذي مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والمنقضة والمترنحة والشراعية والهابطة ، وصواريخها وأبواقها وأنفاسها في الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها في قاراتها الخمس وبحارها السبعة ومن وراء كل أولئك عقول جبابرتها وأساطين علمائها ، ومعاملها الساهرة ومناجمها الحافرة ، ومحاذقها السرية والجهرية ومؤامراتها والقماء والأرواح المبذولة فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء ، والعروش المقوضة والصوالج والمقاليد المحطمة ، والحديث عنها بكل لسان وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج ...

ألا إن الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب إلى المجاهل حينما رأت أن كثيراً من بنيها لم ينهضوا بعد من مراقدهم في الكهوف والغابات لمشاهدة مواكبها الحديثة التي دقت نواقيسها في الآفاق ولم يشتركوا في حمل قوائم عرشها العظيم الذي من لم يره ويدرك أسراره لا يمكن أن يقال عنه إنه ابن زمانه وإنه حقق الغاية المنشودة من إخراجه للحياة في زمن بعينه ...

ولما رأت أن نورها في دور السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون في الظلام والجهل ، حولت ذلك النور إلى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأثرة الأنانية التي ما عرفت قصد الحياة من وضع مصابيح النور في أيديها وخانت أمانات الاستخلاف .

فمن الذي لا يستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة النكراء ويسرع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوي الصحيح والفكر اللطيف اللماح العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !

* * *

وإذا أعرضت الإنسانية ونسيت آلامها الحاضرة وبؤسها وشقاءها بهذه الحرب وتركت الأنظمة الجائرة الغاشمة المغلوطة تتحكم فيها فويل لها ثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعساً للمكتوين بنار الحرب من العمال والصناع والجنود إن لم يقفوا في وجه اللاعبين بالشعوب !

ما أجمل إخاء العالم الإنساني ! وما أقربه في القلوب البريئة من أكثر الناس ! لولا الذين يؤرثون في صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد وإثارة الذكريات الجاهلية والخيلاء العسكرية والألوان السموية المهيجة !

إن الثيران تظل هادئة مستأنسة حتى يثيرها مثير باللون الأحمر فيحولها إلى وحوش فاتكة ...

وكذلك قطعان ابن آدم تريد الهدوء والاستئناس حتى يثيرها مثير بالكلمات الحمراء والحماس الكاذب وحب الشهرة عن طريق الحرب والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم والعمران وإضافة شيء إلى بناء الحياة

* * *

وما أعظم خسارة الإنسانية فى أبناء السلم الذين ذهبوا فى ضحايا هذه الحرب !

إنهم إنسانية عالة عاملة مدربة ماهرة كانت قد نجت من عوامل الموت والجهل والجفوة وتعبت فى تربيتها ثقافات السلام التى استحدثت بعد الحرب العظمى الماضية

إنهم ثمار كبيرة نمت فى جمال وصحة ولكنهم الآن يموتون فى جفاف الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج الفاغر والهواء المخلخل وتحت أثقال الحديد وبين صمق القذائف ! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش الفلوات وأسماك البحار وتتساقط أعضاؤهم بين ركام الثلوج كأنهم عصف مأكول أو هباء منثور

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب حين تفتقد العناصر العالمة العاملة الفتية فلا توجد إلا بعد حين !

ولكنهم قربان لا بد من تقديمه فى سبيل مطلب عظيم !

وقد مات الميت فليحى الحى !

* * *

وما أعظم ما تحتمل أعصاب البشر ! إنهم برهنوا على أن أرواحهم أقوى من الفولاذ والديناميت ؛ إذ رضوا أن يغدوا ويروحوا على مواقع هـذا الموت القظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطيعون وينشدون . . . وإذا رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم وتنسف أطفالهم وحبيباتهم ...

ذلك تحرر وانطلاق فى سبيل العزة وصيانة العقائد

أين صور الأهوال ووقعها فى القديم ؟ من كان يظن أن يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواسف كل لحظة من السماء ، وهو مع ذلك يأكل ويباعل ويرقص ويغنى ويقتنى الأموال وينشد الرفاء والأطفال ؟

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم فى ساحات هذه القيامة ؟ ! ما أوثق ما ربط الله الإنسان بالأرض !

هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال لأنها هى التى صنعتها ولذلك لا تخشاها ...

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذى بدا من النفوس البشرية تحت آلام النار والحديد تدريباً لها من الأقدار العليا وإعداداً لمستقبل مجهول ستحتمل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التى تحول بينها وبين علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !

ألا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول المتحاربة فى اختزال الأبعاد والمسافات واقتحام العقبات إنما هو تجشم على عتبات باب من الانطلاق والتحرر ؟

ألا إنها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية الثائرة المترعة بالحياة المتجددة ، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته !

ألا إنها القوى التى طال سجنها وكمونها فى صدر الأرض ، وجدت سبيلها إلى الانطلاق والظهور على يد الإبن البكر للأرض !

ألا إنها جنٌّ خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقة من سجونها فى التراب ...

أطلقتها يد الإنسان الذى لا يزال ذاهلاً عما يصنع ذهول النحل عما تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

* * *

هذه الحرب عملية هدم ما على الأرض وما فى نفس الإنسان ليحدث الله بعد ذلك أموراً ... ولن تنتهى إلا بعد أن تشمل موجتها كل البقاع ... استيقظ على قوارعها سكان خط الاستواء فى مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضى البيضاء وما بينهما وسكان الجزر النائية المنثورة فى المحيطات وامتزجت منهم جميعاً جيوش فى جميع البقاع تقاتل فى سبيل غاية واحدة ...

وإن الأقدار تحررهم من التاريخ السيئ و« تصفى » ميراث الشراهة والحقد ...

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم . . . هدمها الإنجليز لا الألمان ! لأنهم لم يسلموها لهم كما سلم الفرنسيون باريس ... بل تحرروا من حبها وقدموها دون حريّة نفوسهم وعقائدهم فى الحياة ... ولا بد أنهم قد علموا بعد أن خوّت مدينتهم على عروشها أن النفس هى الباقية أو هى الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة وما عداها ففداء لها . وتلك حقيقة من حقائق الإيمان كان الإنجليز قد فقدوها حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الأمبراطورية قروناً طويلة

ولا بد أنهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب محكوم لهم يجب أن تكون أعز عليه من كل شىء ، بعد أن هددت حريتهم من عدو غاشم جبار فعرفوا ذلك وكانوا قد نسوه أيضاً فى تلك الفترة الطويلة التى حكموا فيها أمماً ولم تحكمهم أمة ... وبالطبع سيكون لعلمهم وتذكرهم هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان أكبر الأثر فى عملهم على إقامة عالم سعيد على أنقاض القديم . وإذا نسى

الإنجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب فسوف لا ينسى الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ونعرات القوميات المفرقة وسُعار الاحتكار والاستعمار ...

* * *

أجل إن الأقدار ذات الحفاوة بالإنسان ما كانت لتترك هذه المجموعة الكبرى من الأمم التى تتكلم الإنجليزية ومن يرتبط بها فى أكثر بقاع العالم دون أن توحدهم وحدة تامة بأية وسيلة لتتخذ منهم خميرة لوحدة أو شبه وحدة بين بنى البشر . وقد خابت مساعى توحيدهم عن طريق السلم ، إذ عز على الإنجليز المحافظين أن ينزلوا عن كثير من تقاليد امبراطوريتهم العظيمة ، وعن حقوق الغلبة والفتح فيها ، وكانوا أولى الناس باتباع ذلك بعد أن خرجوا من الحرب الماضية منصورين . وإذ عز كذلك على الأمريكان الأحرار أن يسيروا مع الإنجليز فى نظرياتهم المحافظة فيرتدوا عن مبادئ عالمهم الجديد وثوراتهم العظيمة التى قضوا بها على خمائر الأحقاد ومواريث التاريخ السيئ فى القارات القديمة ، فعاشوا حياة جديدة فى أرض جديدة ...

فكانت هذه الحرب الحالية ردًّا سريعاً من الأقدار وعقاباً للأمم الناطقة بالإنجليزية لأنها أهملت وتوانت فى السعى المشترك المسلح لإقامة عالم أسعد وأعدل ، وكانت وحدها — ولا تزال — هى التى تستطيع أن تنهض بأعباء ذلك العالم المنشود

ولم أكد أفرغ من كتابة هذا المعنى حتى ساقت لى الأقدار دليلاً يؤيده من أقوال أحد أساطين الأمريكيين وهو المستر « وندل ويلكى » منافس « روزفلت » فى الانتخابات السابقة ... قال كما ورد فى « أهرام » ١٤ / ١ / ١٩٤٢ : « إننا جميعاً نلوم هتلر وحده ، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة . فاللوم لا يقع على هتلر وحده بل ينصب علينا إلى حد ما . فلقد سمحنا فى الماضى لإنتاجنا الصناعى العظيم أن يتحكم فينا وأن يتغلب على مثلنا العليا ... »

أجل ، هذا هو موضع الداء ، وضع « ويلكى » أصبعه عليه ... فإن أمريكا كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الماضية موقف « وليس » العالم بعد أن كان انضمامها للحلفاء فى تلك الحرب أعظم مرجح لكفتهم ، وبعد أن تلقى المستكران المتحاربان مبادئ الرئيس « ويلسن » الأربعة عشر باللهفة والقبول والاستبشار . وكان فيها المثل الأعلى المنشود ، وكان شرف أمريكا يقضى عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادئ التى قدمها رئيسها باسمها ، وأن تعلن حرباً على من يخالفها حتى يفىء إلى أمرها

ولكن ما شغل به العالم بعد الحرب من التهافت على المتاع المادى للتعويض عما أصابه من آلامها ، وما رأته أمريكا من عودة ذوى النزعات المحافظة إلى أساليبهم القديمة فى مزاولة السياسة الدولية ، وما قضت به مساعى الرأسماليين والاستماريين الأنانيين من بقاء العالم فى أدوائه القديمة ... كل هذا ثبط من عزيمة أمريكا وجعلها تترك العالم القديم فى شقائه وتقنع هى بعزلتها السعيدة

ولكن ها هى ذى يد الأقدار تمتد لتنتزعها من هناء عزلتها وتحشرها مع بنى عمومتها وتدفعها معهم فى هذه الحرب الزبون برجالها وأموالها وقضها وقضيضها ... وما أظنها ستنسى واجبها مرة ثانية حين يعود السلام . ومن هنا ينبعث نور الأمل ، لأن أمريكا عملٌ عظيم فى طريق أمل أعظم !

* * *

وبعد ، فإن ذكرى هجرة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ينبغى أن تبعث فى قلوب المسلمين روح الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يقدموا عليه بعد هذه الحرب للوقوف فى صفوف الأمم التى ستشترك فى إقامة الحياة العادلة السعيدة التى تخدم أهداف الإنسانية جميعاً . وإنهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادئ التى تقوم عليها السلامة الإجماعية والمساواة الفردية والدولية التى تنشدها الأمم وتنادى بها فى كفاحها

فليهاجروا إلى حياة الحق والعدالة التى فى دينهم بأرواحهم وأفكارهم حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم بعد الحرب من مبادئ وحلول للعقد والمشكلات

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة إلى مبادئ دينهم العالمى الذى قام على أصول أديان الحق التى ارتضتها البشرية فى المشرق والمغرب ...

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »

عبد المنعم محمد خلوف

حكمت محكمة المنصورة العسكرية فى الجنحة ن ٤٠٣ سنة ٩٤١ بحبس زينب المرسى حسن من سندوب شهراً بالشغل لبيعها قمحاً بسعر زائد عن المحدد